# لمَ نحن أرثوذكسيّون؟

أليكسي إيليتش أوسيبوف[1]

....تتمّة

### ❖ الخطوة الثالثة: قلْ لي من هم قدّيسيك أقُلْ لكَ ما هي كنيستك

من أجل فهم ما هي هذه الكنيسة المسيحيّة أو تلك، يكفي أن ننظر إلى قدّيسيها، حتّى من دون التطرُّق إلى عقيدتها. فالشجرة تُعرَفُ من ثمارها، وكلّ كنيسةٍ تعلن قداسة الأشخاص الذين جسَّدوا في حياتهم مثُلَها العليا. لذا، إنّ تقديس الكنيسة للقدّيس لا يعكس فقط شهادتها لهذا المسيحيّ الذي اعتبرته مثالاً يُحتذى به، بل يكون أيضًا، في المقام الأوّل، شهادتها التي تقدّمها عن نفسها. يمكنكم الحكم بدقّةٍ أكبر على أصالة الكنيسة أو قداستها الزائفة من خلال قدّيسيها.

سأقارن أوّلاً بين قدّيسي أكبر الكنائس المسيحيّة – الكنيستَين الكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة.

أحد الأعمدة الرئيسة في القداسة الكاثوليكيّة هو القدّيس فرنسيس الأسيزي (القرن 13). يتجلّى وعيُه الروحيّ الذاتيّ بوضوحٍ كافٍ من خلال الحقائق التالية. ذات يوم، صلّى القدّيس فرنسيس طويلًا "ذاكرًا رحمتَين" (يكشف لنا موضوعُ صلاته الكثير). "الأولى هي أنّني... استطعتُ... أن أختبر الآلام كلّها التي اختبرتها أنتَ، يا يسوع الحلو في آلامكَ الموجعة. والرحمة الثانية... هي أنّني... أستطيع أن أشعر... بتلك المحبّة اللامحدودة التي التهبتَ بها أنتَ يا ابن الله". كما نرى، لم يزعج القديّسَ فرنسيس أيُّ شعورٍ بإثميّته، كما هي الحال مع جميع القدّيسين؛ ومن الواضح هنا ادّعاؤه الصريح بالمساواة مع المسيح في آلامه ومحبّته! خلال هذه الصلاة "شعر" القدّيس فرنسيس "بأنّه صار يسوع بالكامل"، وحدث له شيءٌ لم يحدث من قبل في تاريخ الكنيسة: ظهرت عليه جِراحٌ مؤلمةٌ ونازفة (stigmata) - علامات "آلام يسوع[2]".

---

[1] من محاضرة أُلقيت في مدرسة سريتينسكي اللاهوتيّة.

[2] M.V. Lodyzhensky, *Unseen Light* (St. Petersburg, 1915) 109

تجدر بنا الإشارة هنا إلى أنّ طبيعة هذه الجِراح معروفةٌ في الطبّ النفسيّ. إنّ التركيز المستمرّ على آلام المسيح على الصليب يثير أعصاب الإنسان ونفسيّته بشدّة؛ وإذا مورِسَ هذا التركيز مدّةً طويلة، يمكنه أن يُثير هذه الظاهرة. لا يوجد هنا شيءٌ خارق أو عجائبيّ. ليس في هذا "التعاطف" مع المسيح المحبّة الحقيقيّة التي تكلّم عليها الربّ بوضوح قائلًا: "الذي عنده وصاياي ويحفظها فهو الذي يحبّني" (يوحنّا 14: 21). على العكس، فإنّ استبدال المرء الجهاد ضدّ أهوائه الأثيمة بتجارب "التعاطف" الحالمة هو أحد أخطر الأخطاء في الحياة الروحيّة، والتي قادت، ولا تزال، النسّاك إلى الغرور والكبرياء – إلى خديعةٍ واضحة، مرتبطةٍ غالبًا باضطرابٍ نفسيّ صريح (انظر "عظة" القدّيس فرنسيس للطيور والذئب واليمام والثعابين والزهور، وما إلى ذلك؛ وتبجيله أمام النار والحجارة والدود). فلا عجب إذًا أنّ القدّيس فرنسيس ادّعى أنه يكفّر خطايا الآخرين من خلال تقليده المسيح.

وهدف الحياة الذي وضعه القدّيس فرنسيس لنفسه يخبرنا أيضًا بالكثير: "لقد عملتُ وأريد أن أعمل... لأنّ هذا يجلب الشرف"[3]. أليس هذا هو السبب الذي جعله يقول بصراحةٍ في آخر حياته: "إنّني لا أعرف خطيئةً في نفسي لم أبرّرها بالاعتراف والتوبة"؟[4] يشهد هذا كلُّه على عدم علمه بخطاياه وبعدم استحقاقه أمام الله، أي على كارثةٍ روحيّةٍ تامّة.

في المقابل، نستشهد من سيرة القدّيس سيسوي الكبير (القرن الخامس) باللحظة التي سبقت موته. «كان الإخوة يحوطونه حين احتضاره، وبدا كما لو كان يتحدّث مع كائناتٍ غير مرئيّة، فسأله الإخوة: "يا أبانا، أخبرنا مع مَن تتحدّث؟"، فأجاب سيسوي: "إنّهم ملائكةٌ جاؤوا ليأخذوني، لكنّني أتضرّع إليهم لكي يتركوني مدّةً قصيرةً بعد لكي أتوب". عندئذٍ، اعترضَ الإخوة الذين كانوا يعلمون أنّ سيسوي كان كاملاً في الفضائل، قائلين: "لا حاجة لك إلى التوبة، يا أبتاه". فأجابهم سيسوي: "حقًّا، لا أعلم إذا كنتُ قد بدأتُ بالتوبة"»[5]. هذه المعرفة العميقة للإنسان بنقصه هي السمة المميِّزة الرئيسة لجميع القدّيسين الحقيقيّين.

فيما يلي مقاطع من مذكّرات الطوباويّة أنجيلا (13-14م).[6]

[3] St. Francis of Assisi. Works (Moscow, Franciscan publishers: 1995) 20; 145
[4] Lodyzhensky, 129
[5] المصدر نفسه، 133
[6] The revelations of Blessed Angela (Moscow, 1918

تكتب قائلةً إنّ "الروح القدس" يقول لها: "يا ابنتي، يا حلاوتي... أحبّكِ كثيرًا". "كنتُ مع الرُّسل، وقد رأوني بأعيُنهم الجسديّة، لكنّهم لم يشعروا بي مثلك". ثمّ تكشف أنجيلا قائلةً: "إنّني أرى الثالوث القدّوس في الظلمة، ويبدو لي أنّني أقف وأقيم في وسط الثالوث الذي أراه في الظلمة". وعبّرت عن علاقتها بيسوع المسيح بهذه الكلمات: "أستطيع أن أُدخِلَ نفسي بالكامل في يسوع المسيح". أو "من حلاوته ومن حزن رحيله صرختُ وأردتُ أن أموت". عندها بدأت تضرب نفسها بشدّةٍ إلى درجة أنّ الراهبات حملنَها خارج الكنيسة.

قام إ. ف. لوسيف، أحد أعظم المفكّرين الدينيّين الروس في القرن العشرين، بتقييمٍ لاذعٍ ولكن حقيقيّ لـ "رؤى" أنجيلا. يكتب: "إنّ إغواء الجسد وضلاله يقودان إلى نقطةٍ يظهر فيها الروح القدس للطوباويّة أنجيلا ويهمس لها بهذه الكلمات الغراميّة: "يا ابنتي، يا حلاوتي، يا ابنتي، يا هيكلي، يا ابنتي، يا بهجتي، أحبّيني لأنّي أحبّكِ كثيرًا، أكثر بكثيرٍ ممّا تحبّينني". تسكر القدّيسة بذلك، ولا تستطيع أن تتمالك نفسها من هذا الحبّ. ويستمرّ حبيبُها في الظهور، ملهِبًا جسدها وقلبها ودمها. يظهر لها صليب المسيح كسرير زواج... ما الذي يمكن أن يكون أكثر تناقضًا مع الزهد البيزنطيّ-الروسيّ الصارم والعفيف من هذه العبارات التجديفيّة المستمرّة: "لقد قُبلَت نفسي في النور غير المخلوق ورُفعَت"، وهذه النظرات العاطفيّة إلى صليب المسيح وجراحاته وأجزاء مختلفةٍ من جسده، وهذا الاستحضار القسريّ لبُقع الدم على جسدها، وما إلى ذلك؟ في النهاية، يعانق المسيح أنجيلا بذراعه المسمَّر على الصليب، وهي، بسكرةٍ وعذابٍ وسعادة، تقول: "أحيانًا، من هذا العناق الوثيق، يبدو لنفسي أنّها تذهب إلى جنب المسيح. والفرح الذي تحصل عليه هناك، والنور، لا يمكن سردهما. إنّهما عظيمان إلى درجة أنّني أحيانًا لم أتمكّن من الوقوف على قدمي، بل كنتُ أستلقي هناك، غير قادرةٍ على الكلام... وكانت أطرافي تتخدّر[7].

من الأعمدة الأخرى البارزة في القداسة الكاثوليكيّة هي كاثرين من سيينا (القرن 14م)، والتي رفعها البابا بولس السادس إلى أعلى رتبة قداسة - "معلّمة الكنيسة". سأقرأ عنها بعض الملاحظات المأخوذة من الكتاب الكاثوليكيّ "صور القدّيسين" لأنطونيو سيكاري،[8] والمنشور باللغة الروسيّة. هذه الاستشهادات (التي أُبرِزُها) لا تحتاج إلى تعليق.

[7] A. F. Losev, *Sketch of Ancient Symbolism and Mythology* (Moscow, 1930) 1:867–868.
[8] Antonio Siccari, *Portraits of Saints*, (Milan, 1991)

كانت كاثرين **تبلغ من العمر نحو العشرين عامًا**. «شعرَت أن تحوّلًا حاسمًا يجب أن يحدث في حياتها، وواصلَت الصلاة بتقوى إلى الربّ يسوع، مكرّرةً تلك **العبارة الجميلة الرقيقة** التي تحوّل ترددها إلى عادةٍ لديها: "**اتّحِدْ بي بالزواج في الإيمان!**"».

«في أحد الأيّام عاينَت كاثرين رؤيا: رأت عريسَها الإلهيّ **يحتضنها ويجذبها إليه**، لكنّه بعد ذلك أخرج قلبها من صدرها ليُعطيها قلبًا آخر، يشبه قلبه أكثر».

وفي أحد الأيّام، قالوا إنّها ماتت. «قالت هي بنفسها فيما بعد **إنّ قوّة الحبّ الإلهي مزّقت قلبها**، وإنّها مرّت بالموت، و"رأت أبواب السماء". "ولكن قال لي الربّ: "ارجعي يا ابنتي، عليكِ أن ترجعي... سأقودكِ إلى أمراء الكنيسة وحكّامها"". وبدأت الفتاة المتواضعة بإرسال رسائلها إلى جميع أنحاء العالم - **رسائل طويلة، كانت تُمليها بسرعةٍ مذهلة، وغالبًا ما كانت تُملي ثلاث رسائل أو أربع في المرّة الواحدة، ولأسبابٍ مختلفة، حتّى إنّ الأمناء لم يستطيعوا مواكبتها**».

«في رسائل كاثرين، يبرز على نحوٍ خاصّ الاستخدام المتكرّر والمستمرّ لعبارة "أريد". يقول بعضهم إنّها، **في حالةٍ من النشوة، وجّهت إلى المسيح العبارة الملحّة "أريد"**».

تقول في مراسلتها مع البابا غريغوريوس الحادي عشر، الذي أقنعته بالعودة من أفينيون إلى روما: "**أقول لكَ باسم المسيح**... أقول لكَ أيّها الأب، في يسوع المسيح... **استجِبْ لنداء الروح القدس** الذي خاطبكَ".

تكتب إلى حاكم ميلانو: «عن البابا الذي عُهِدَت إليه: "**حتّى لو كان الشيطان في الجسد**، لا بدّ لي من أن أطيعه"».

«إلى ملك فرنسا تكتب: "نفِّذْ مشيئة الله وإرادتي"».

وما لا يقلّ دلالةً عمّا سبق لنا أن ذكرناه هي "الرؤى" التي أُعطِيَت لـ "معلّمة الكنيسة"، تيريزا الأفيليّة (القرن 16م)، والتي أعلن قداستها البابا بولس السادس أيضًا. قبل وفاتها صرخت: "يا إلهي، **يا زوجي**، أخيرًا سأراكَ!". هذا الهتاف الغريب للغاية ليس من قبيل الصدفة، بل هو النتيجة المنطقيّة لرياضة تيريزا "الروحيّة" بأكملها، والتي ينكشف جوهرها في الحقيقة التالية.

كانت منغمسةً في "رؤاها" إلى درجة أنّها لم ترَ خديعة الشيطان حتّى في مثل هذه الرؤيا الشنيعة التي سنذكرها أدناه (قام يوحنّا رئيس دير بلعام بتقييم حالتها الروحيّة على النحو التالي: "بدلاً من التألّه، سيصبح الشخص العاطفيّ حالِمًا، مثل تيريزا الكاثوليكيّة").[9]

قال "المسيح" لتيريزا، بعد ظهوراته المتعدّدة لها: **من الآن فصاعدًا، ستكونين زوجتي**... ومن الآن فصاعدًا، لستُ خالقكِ وإلهكِ فحسب، **بل أيضًا زوجكِ**"[10]. كتب د. ميريزوفسكي قائلًا إنّ تيريزا «صَلَّت وسقطت: "يا ربّ، إمّا أن أتألّم معك، أو أموت من أجلك!" منهَكةً من هذه المعانقات...» (لا أستطيع أن أذكر أكثر من ذلك). لذلك، ليس من المستغرَب أن تعترف تيريزا قائلةً: "حبيبي يدعو روحي بمثل هذا **الصفير المُخترِق** الذي لا أستطيع إلّا أن أسمعه. وهذا النداء يؤثّر في النفس فتُنهكها الرغبة". وليس من قبيل الصدفة أن يقيّم عالمُ النفس الأميركيّ الشهير ويليام جيمس تجربتها الصوفيّة على النحو التالي: "يبدو أنّ الفكرة الرئيسة لدينها هي المغازلة الودّيّة -إذا جاز للمرء أن يقول من دون عدم توقير- بين المتكرّس والإله"[11].

مثلٌ آخر على القداسة في الكاثوليكيّة هو تيريزا دي ليزيو ("الزهرة الصغيرة" أو "الطفل يسوع")، التي أُعلنت معلّمةً للكنيسة في العام 1997 في الذكرى المئويّة لوفاتها، بقرارٍ "معصومٍ" أصدره البابا يوحنّا بولس الثاني. إليكم اقتباساتٌ عدّة من السيرة الروحيّة لتيريزا، التي عاشت فقط حتّى الثانية والعشرين من عمرها، وهذه الاقتباسات تشهد ببلاغةٍ على حالتها الروحيّة (من كتاب "قصّة نفسٍ" [باريس، 1996]).

«خلال محادثةٍ سبقت رسامتي، قدّمتُ تقريرًا عن الأنشطة التي أنوي القيام بها في الكرمل. "**لقد جئتُ لأخلّص النفوس**، وأوّلًا وقبل كلّ شيء، للصلاة من أجل الكهنة"». لم تكن قد خلّصت نفسها بعد، وجاءت لتُخلّص الآخرين!

يبدو أنّها تكتب عن عدم استحقاقها، لكنّها تضيف بعد ذلك، ""لدي دائمًا أملٌ جريءٌ في أن أصبح **قدّيسةً عظيمةً**... اعتقدتُ أنّني ولِدتُ من أجل المجد، وبحثتُ عن طريقٍ لتحقيقه. والربّ الإله... كشف لي أنّ مجدي لن يكون مرئيًّا للنظر البشريّ، ويكمن جوهر ذلك في حقيقة أنّني سأصبح **قدّيسةً عظيمةً**!" (انظر

[9] Valaam Elder Schema-Abbot John (Alexeyev), *Letters on the Spiritual Life* (Holy Trinity-St. Sergius Lavra, 2007), 268
[10] D. C. Merezhkovsky, *Spanish Mystics* (Brussels, 1988), 88
[11] William James, *The Varieties of Religious Experience* (New York: Barnes and Noble Classics, 2004), 304

سيرة القدّيس مكاريوس الكبير، الذي دعاه رفاقه النُسّاك "إلهًا أرضيًّا"، وهو كان يصلّي فقط: "اللّهمّ نقّني أنا الخاطئ، لأنّي لم أفعل شيئًا صالحًا في عينَيك"). لاحقًا كتبت تيريزا أمرًا أكثر صراحةً: "**في قلب أمّي الكنيسة سأكون الحبّ**... ثمّ سأكون كلّ شيء... **وبهذا سيتحقّق حلمي!**".

إنّ تعليم تيريزا عن الحبّ الروحيّ معبِّرٌ إلى أقصى الحدود. "**كانت هذه قبلة الحبّ**. شعرتُ بالحبّ وقلتُ: "أنا أحبّكَ وأستودعكَ نفسي إلى الأبد". لم يكن هناك غفران، ولا جهاد، ولا بذل؛ **منذ زمنٍ طويل، نظر يسوع وتيريزا الصغيرة المسكينة الواحد إلى الآخر وفهِما كلَّ شيء**... في هذا اليوم لم يكن من تبادلٍ للآراء، بل كان ثمّة امتزاج، حيث لم يعودا اثنين. واختفت تيريزا كقطرة ماءٍ ضائعةٍ في أعماق المحيط". ما من حاجةٍ إلى التعليق على هذه الرومانسيّة الحالِمة لفتاةٍ فقيرة، والتي تطلق عليها الكنيسة الكاثوليكيّة – للأسف!- "معلّمة".

إنّ التطوّر المنهجيّ للخيال يعتمد على تجربة أحد أعمدة التصوّف الكاثوليكيّ، مؤسّس الرهبنة اليسوعيّة والقدّيس الكاثوليكيّ العظيم إغناطيوس لويولا (القرن 16م).

يُعتبر كتابه "الرياضات الروحيّة" ركيزةً أساسيّةً في الأديرة الكاثوليكيّة، ويدعو المسيحيّ بإلحاحٍ إلى **تصوّر** الثالوث القدّوس والحديث مع الأقانيم الثلاثة، ومع المسيح ووالدة الإله والملائكة... هذا كلّه يحظّره على نحوٍ قاطعٍ قدّيسو الكنيسة الجامعة. ويشهدون أنّ الناسك عندما يبدأ العيش في خيالاته، والنظر إلى نفسه في "أفلامه" وتصديقها، فبدلاً من أن يتمّم وصايا المسيح ويجاهد ضدّ أهوائه، سيَصِلُ إلى اضطرابٍ روحيّ وعاطفيّ كامل.

وتحظّر الفيلوكاليا، وهي المجموعة الموثوقة للكتابات النسكيّة في الكنيسة القديمة، على نحوٍ قاطع، مثل هذه "الرياضات الروحيّة". هاكم بعض الاقتباسات من هذا الكتاب.

يحذّر القدّيس نيلوس السينائيّ (القرن الخامس) قائلًا: "لا ترغبنَّ في رؤية الملائكة أو القوّات أو المسيح بصورةٍ جسديّة، حتّى لا تفقد عقلكَ من قبول الذئب بدلاً من الراعي، ومن عبادة خصومنا، الشياطين"[12].

[12] St. Neilos of Sinai, "153 chapters On Prayer", chap. 115, *The Philokalia*, 5:2 (Moscow, 1884), 237

ويناقش القدّيس سمعان اللاهوتيّ الجديد (القرن التاسع) عن أولئك الذين، في أثناء الصلاة، "يتخيّلون البرَكات السماويّة، أو صفوف الملائكة، أو مساكن القدّيسين"، موضحًا بوضوحٍ أنّ "هذه علامةٌ على **الخديعة**". "إنّ الذين على هذا الطريق مخدوعون، الذين يرون النور بأعيُنهم الجسديّة، ويشمّون الروائح بحاسّة الشمّ لديهم، ويسمعون الأصوات بآذانهم، وما إلى ذلك"[13].

كم كان ذلك النبيل على حقّ (كتبَ عنه القدّيس إغناطيوس بريانشانينوف)، الذي عندما رأى بين يدَي ابنته الكتاب الكاثوليكيّ "تقليد المسيح" لتوماس كمبيس (القرن 15)، انتزعه منها قائلًا: "كفّي عن ممارسة الرومانسيّة مع الله". والأمثلة المذكورة أعلاه لا تترك مجالًا للشكّ في معقوليّة هذه الكلمات. كما نرى، إنّها لمأساةٌ كبيرةٌ أنّ الناس في الكاثوليكيّة توقّفوا عن التمييز بين الروحيّ والعاطفيّ، وبين القداسة والخيال. هذه هي أعظم كارثةٍ يمكن أن تَحِلّ بأيّة كنيسةٍ مسيحيّة.

### ❖ أنا أومن فقط؟

لكي نرى جوهر البروتستانتيّة ونفهم أين تختلف جوهريًّا عن الأرثوذكسيّة، يكفي أن نُشير إلى تأكيدها الرئيس: "بالإيمان وحده يخلص الإنسان، لا بالأعمال، **لأنّ الخطيئة لا تُحسَبُ خطيئةً لمَن يؤمن**. تُغفَرُ خطايا المؤمن -الحاضرة والمستقبليّة والماضية-، لأنّها مغطّاةٌ أو مخفيّةٌ عن الله ببرّ المسيح الكامل". وقد عبّر لوثر نفسُه عن ذلك بالكلمات التالية: "بسبب هذا الإيمان بالمسيح، لا يرى الله الخطيئة التي لا تزال باقيةً فينا... الله يحسب البرَّ الناقص برًّا كاملًا، والخطيئة عدم خطيئة، مع أنّها خطيئةٌ حقًّا". يعلّم لوثر أنّ الإنسان هو "عمود ملح"، لا يستطيع أن يفعل شيئًا من أجل خلاصه، وبالتالي لا ينبغي له أن يفعل شيئًا. لا تعليق، كما يقولون. يمكنكم الاسترخاء. في المقابل، تُعلّم الأرثوذكسيّة أنّ الإنسان يعمل مع الله في الخلاص. قال المسيح: "الذي عنده وصاياي ويحفظها فهو الذي يحبّني" (يوحنّا 14: 21). "ومن أيّام يوحنّا المعمدان إلى الآن ملكوتُ السماوات يغصَبُ والغاصبون يختطفونه" (متّى 11: 12). وهذا يعني أنّه من أجل الحصول على مغفرة خطايانا والخلاص، نحتاج إلى الإيمان مع التمييز، وإلى حياةٍ تُعتبر عمومًا أخلاقيّة. ولكن فيما يخصّ

[13] St. Symeon the New Theologian, "On Three Kinds of Prayer," *The Philokalia* (Moscow, 1900), 463-464

تحقيق وصايا الإنجيل والتوبة، تذكّروا ما قاله المسيح: "ليس كلُّ مَن يقول لي يا ربّ يا ربّ يدخل ملكوت السماوات. بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السماوات" (متّى 7: 21).

هذا يعني أنّ الله لا يخلّصنا من دوننا، من دون جهدنا وجهادنا. فالعمل الشخصيّ ضروريّ، ويجعل المؤمن قادرًا على تلقّي المعونة من المسيح. يقول القدّيس سمعان اللاهوتيّ الجديد: "إنّ التنفيذ الدقيق لوصايا المسيح يعلّم الإنسان عن ضعفاته"، أي يكشف له خطاياه وعجزه عن اقتلاع أهوائه من دون معونة الله. لكن عندما يرى الإنسان أنّه يهلك في عذاب الأهواء، يلجأ إلى المسيح المخلّص، ويأتي المسيح ليُساعده. ومن ثمّ، ما لا يستطيع الإنسان أن يفعله بنفسه، يمكنه أن يفعله "مع" الله. هذه هي بداية الإيمان الحيّ الصحيح **الأرثوذكسيّ**.

وهكذا، فإنّ الإنسان الذي يصعد الخطوات الثلاث بحثًا عن الحقيقة، يصِلُ أوّلاً إلى الإيمان بالله الواحد، ثمّ إلى المسيحيّة، وأخيرًا إلى الأرثوذكسيّة. غير أنّ الوصول إلى الأرثوذكسيّة لا يعني على الإطلاق أنّ المرء قد دخل فيها بالفعل - فالذين جاؤوا إلى الأرثوذكسيّة عددهم أكبر بكثيرٍ من أولئك الذين صعدوا إلى الخطوة الرابعة من **المعرفة**.

*نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ*

**Source:** Alexei Ilyich Osipov (2010). “Why Are We Orthodox?” *Pravoslavie.ru*